قصيدة في سكون الليل ((أبو القاسم الشابّي))

تحليل (النص الشعري):

١. قبل القراءة:

إنّ النصّ الشعري الذي بين أيدينا نصٌّ نثريٌّ بدلالاته، فاللغة في النصّ الرومانسي تعيد إنتاجها ضمن قراءةٍ تأويلية من خلالها نغوص إلى أعماق النصّ، لنقترب منه ثمّ نستخرج مكنوناته الشعرية.

وشعرية النصّ الرومانسي تميّزه من غيره من النصوص الكلاسيكية أو حتّى مما جاء بعدها، إذ إنّ شعرية الرومانسية تحمل تمرّداً على القواعد الرتيبة الكلاسيكية الجامدة، وتطمح إلى حرية التعبير عن الذات، وتنتقل بنا من عالم الحس إلى عالم الخيال والرؤيا والكشف. ومن هنا نرى أنّ مصطلح الشعرية تحوّل تحوّلاً جذرياً في الحركة الرومانسية، فاتجه الشعر إلى مخاطبة القلب، ولغته لغة العاطفة والوجدان وصار تعبيراً بعد أن كان محاكاة.

أمّا مصطلح الرومانسية فهو: ((مذهب أدبي تجديدي في جميع الفنون، ثار على المذهب الكلاسيكي المتشبث بالأدب الإغريقي وقواعده، وهي تدفع الإنسان نحو الطبيعة وإيثار الحس والعاطفة، وتفضّلهما على العقل والمنطق، وقد أولت الذات الفردية مزيداً من الاهتمام، وذهبت إلى أنّ الشعر إلهام، والشاعر عبقري الخيال والأحلام والحب، واهتمّ الرومانسيون بالشعر الغنائي أكثر من اهتمامهم بالشعر الموضوعي)).

٢. في قراءة النصّ:

أ- المحور الأفقي:

١- المستوى الإيقاعي:

- يعتمد الشاعر الشابي بحر (الرَّمَلِ) هيكلاً يغلّف به نصّه الشعري (في سكون الليل)، والرَّمَلُ سُمّي بذلك لسُرعة النطق به أي المشي السريع، ووزنه:

(فاعلاتن فاعلاتن فاعلاتن)

- التفعيلات المتساوقة في النصّ بدلالات ألفاظها تأتي متجانسة مع التجربة الشعرية لدى الشابي، فالشابي يسمِّي رحلته إلى هذا العالم تجربة حسب تعبير نازك الملائكة، والتجربة ((فعالية إرادية يقوم بها الإنسان واعياً، وهي بهذا تختلف اختلافاً جوهرياً عن الموت الذي هو استسلام سالب لا مفرّ منه لعوامل الانحلال والسكون)).
- ونرى في هذا النصّ الملمح الرومانسي في الإيقاع الدّاخلي الذي تحقّقه الكلمات المتكررة في معناها ومبناها، كترار التراكيب النحوية الإنشائية بحرف الاستفهام:

(ما الذي) في محاولةٍ من الشاعر استكناه عوالم، باحثاً في مجهول. ما الذي خلف الغيوم – النجوم، وهما كلمتان متوافقتان من حيث الفضاء المكاني والزمني.

وتكرار (هل) – (أيها الليل) – (يا ليل).

هذا التكرار يوحي بحالةٍ متواشجة في البحث الوجودي في ظلّ (زمنٍ ليلي) وهذا التكرار متواصل في حالة الشاعر المتوحدة بالليل، والـ(أنا) المتابعة في لحظة كشفٍ واختراقٍ إلى عالم آخر. فإنّ تكرار تلك الدوال هو سؤالٌ مشروع للدخول في تأمّلٍ ذاتي فلسفي إلى ما وراء الوجود. فالإيقاع الداخلي ينبئنا عن لغةٍ كشفية وليست سردية، مما

جعل التكرار يخرج من دائرة الرتابة. بل هو معنى يرفد تجربة الشاعر لـ معنى الموت والحزن والحياة الآفلة والاغتراب، والتوحد في عالم الليل الكئيب، حتّى يصل إلى النهاية (السكون – السبات والموت).

- ونرى أيضاً تجديداً في رويّ النص الشعري، فنراه متنوعاً بأحرفه التي تحمل دلالات مكثّفة تفيد معنى القصيدة، إذ انتقل الشاعر بالروي ليندفع إلى حرف رويٍّ آخر. وأحرف الروي في النصّ هي (ب – ت – ة – م – ه – د – ق) ولكلّ حرفٍ دلالته، وذلك حسب الدفقة الشعورية.
- نكتشف أن الشاعر متوحد بالليل، والأنا المتوحدة تبُثُّ المواجع والهموم وتعطينا كشفاً لحاضرٍ كئيب فتنتقل بدلالات الروي، المتنوعة إلى كشفٍ في الرؤية.
- الباء: ودلالته الامتلاء والاتساع والعلو والانبثاق والظهور، والبعثرة والتبدد. وقد تكرر خمس مرات (الغريب – الكئيب – النحيب – غضاب – انتحاب) وهذه الدلات تصب في دلالةٍ واحدة (الكآبة – الحزن)، فالتكرار هنا داعمة رئيسة للشاعر الممتلئ بالحزن لإيصال إحساسه الرهيف في عالم الليل.
- **التاء**: ودلالته توحي بالتناقض أي بين (الرقة والضعف / والشدّة والقساوة) وقد تكرر في النصّ مرّتين. وكلماته توحي بالتناقض: (الظلمات / ناضرات) (الليل / الفجر) (الموت / الحياة).
- **الهاء**: يوحي بمشاعر إنسانية من حزنٍ وأسى ويأس وضياع، وتكرر أربع مرّات. (الهاويه – الداميه – الواجمه – الساهمه) ونلاحظ هنا تماثل هذه الكلمات بالمعنى الدلالي لحرف الهاء وهو (الكآبة).

- **الميم**: يوحي بالجمع والاستخراج، لكن إذا جاء أخيراً ففيه الانسداد والانغلاق، وهذا ما يوحي به في النص الشعري:

(حطيم – بهيم – وجوم – رحيم – نجوم – سلام – ظلام – غمام) فمعانيه متناقضة توحي بالانفتاح كذلك بالانغلاق.

(سلام – رحيم – غمام) (بهيم – ظلام – غمام)

- **الدال**: يوحي بالظلام وألوان السواد. والسكون والصمت، وانعدام الحركة والفعالية وتحقيق الإمكان.

(الغد – الأربد – الخلود – الوجود – عنيد – مريد – الأسود).

- **القاف**: ودلالته الجفاف والكسر وتكرر مرّة واحدة في النصّ ودلالته تطابق ذلك (لا تطاق).

وبذلك نرى أنّ القصيدة الرومانسية جدّدت في إيقاعها الداخلي والخارجي معاً.

٢- المستوى المعجمي:

بيّنا أنّ دلالة النص الشعري لا تبين إلّا إذا قمنا باستخلاص معجمه الشعري.

والمعجم الشعري للنصّ يثير فينا إحساساً مدهشاً بالكشف والرؤية في عالم الليل.

يتألف النصّ من واحدٍ وثلاثين بيتاً، وتتوزع ألفاظه على الشكل الآتي:

(١٩٤ اسماً – ٦٧ معرفة والباقي نكرة) وهي تهيمن على الأفعال، والأسماء تفيد الثبات، والأفعال تفيد الحركة، والحركة هنا ليست آنية بل استشرافية يشوبها التفكير بالوجود والعدم والقلق.

ويتوزع النصّ على محاور دلالية ذات دوالَّ (في حقول دلالية):

- **المحور الأوّل:** تشخيص الليل، الأصل في الليل أن يكون زمناً، يقع بين المساء والفجر، ولكن هنا نراه إنساناً أي مجالاً رمزياً من مجالي التوحد، (أيها الليل – خلاياك – هاجعاً – صامتاً – تصغي – يا ليل).
- **المحور الثاني:** الكآبة ومحور الموت أيضاً: فالليل كئيب يبتعث الكآبة، وهو حالة ملازمة من حالات عشق الليل، تقترن الكآبة بمعاني الفناء والموت الذي ينطوي عليهما الليل، بالقدر الذي يقترن بمعاني الإبداع والشعر في السياق الرومانسي. (حطيم – كئيب – غريب – ظلمات – أحزان – وجوم – أسى – انتحاب – يأس). والموت (يحجب – ظلمات – هاوية – السبات).
- **محور الرومانسية والطبيعة:** (الشجو – الدموع – الشجون - محزون – نواح – نحيب – الليل – الفجر – الغيوم – النجوم).

والطبيعة الرومانسية نراها عبر الليل وهو العالم الداخلي للشاعر، عالم الإحساس الباطني وانغلاق الذات على نفسها.

- **محور السؤال:** وهو هنا من الانغلاق إلى الانفتاح في مجال الرؤيا:

(ما الذي خلف الغيوم؟ – ما الذي خلف النجوم؟ – ما الذي يكتمه الدهر؟ – ما الذي يخفيه الغد؟ – ما الذي خلفك؟ – أويلٌ أم سلام؟ – أنورٌ؟ – أم ظلام؟).

وهو هنا سؤال العارف.

- **محور الإجابة:** (الشجون – القلب المحزون – الشاعر الكئيب – الشاعر اليائس – الموت [التراب – القبر] – السبات والسكون – وداع الحياة – انقطاع تحقق الإمكان – النهاية).

وتصبّ هذه المعاجم الفنية كلّها في محورٍ عامٍّ متداخل في معانيه غير المتناقضة بل المتشاكلة والمتماثلة في شكلها. وهو التوحد في عالم الليل فتدخل الأنا في عزلةٍ تتماهى معها.

نرى في الليل ليلاً فردياً ذاتياً، وهو زمنٌ شعوري، كليل امرئ القيس، ولكنه عند الشابي لحظة تكشّف ورؤيا تشوبها العدمية، وهو ما يميّز النصّ الرومانسي في فضاء الليل الذاتي. لذلك نرى كل كلمة لها دلالتها الحقيقة على العالم الخارجي النابض بالحياة فتأخذ معناها داخل السياق حيث يُثبط معناها وتنحو إلى العدمية والنهاية.

٣. المستوى التركيبي:

- ينقسم المستوى التركيبي للقصيدة إلى قسمين:

١. **التركيب النحوي:** ويهمّنا جدّاً هنا أن نبيّن أنّ الشاعر الرومانسي استعمل تراكيب نحوية مألوفة، قريبة الفهم، وعميقة المعنى، ومدلولاتها تتراكم لتؤدي وظيفة شعرية. مثلاً تركيب النداء يتكرر أكثر من مرّة، دلالةً على الزمن الذاتي الكئيب المتوحد معه الشاعر: (أيها الليل – أيها القلب – يا ليل). نداء رومانسي حزين.

نرى الصفات متلاحقة وهي دلالة على الرؤية الذاتية لليل الداخلي.

٢. **التركيب البلاغي:** هو تحوّلي استبدالي، تتحرك فيه الصور متناغمة في وظائفها الكلية، فنرى الظلمات تتناغم مع أحزان الحياة، وصفة الجبار تتناغم مع الطول والحزن والوجوم والسكون والصمت في زمن الليل.

- نرى انزياحاتٍ بلاغية من خلال علاقة الإسناد. فالصورة التشخيصية هي الغالبة على النص الشعري، وهي إضفاء الصفات الإنسانية على الأشياء.

فالليل مخاطب يشعر ويحس، والفجر له جناحان.

نرى صورة الدمع والدّم متوافقة و(الشجو والرحيم) متآلفة.

والليل والظلمات متجانسة. وهي صفات مألوفة.

- ونرى صورة الليل كجبارٍ حطيم. ونرى أنشودة الدهر متوصفة في الموت.
- وصحيح أنّ الشاعر لم يُسند الليل ليقول (ليلي) كي نعلم أن الذات تدخل ولا تخرج، ولكن الدّوال هي الصفات التي ألصقها بالليل هي دليل ذلك، حينما يقول: (أرنو فألفيك كجبارٍ حطيم – ساكناً – جلك الحزن – هاجعاً).
- بعض الصور مألوفة (طافت الأحلام – خلف النجوم ...).

ب- **المحور العمودي:**

١- المستوى الدلالي:

سنقف عند العنوان أوّلاً:

- العنوان (في سكون الليل) وهو شبهُ جملةٍ، فحرف الجر (في) يفيد الثبات والدخول، والسكون يعني الصمت مضافاً إلى الليل. لا انزياح في العنوان بل عنوانٌ رومانسيٌ مألوف. كون الليل موضوعاً رئيساً من موضوعات الرومانسية المحببة لدى شعراء الرومانسية. ومن سياق النصّ الشعري نرى السكون تأملاً وعزلة، والليل قرين العزلة، والشاعر فيها غريب مكتئب، في ظلّ انهيار الحياة وانتصار الموت.
- السكون يعني الهرب من عالم النهار إلى عالم الليل في لحظاتٍ كشفيه، نحو تأملات مثالية، تتضمّن أسئلة يعجز عنها النهار ولكن سواد الليل أجاب فكانت النهاية متوافقة مع أفق توقع الشاعر لأنّه متوحّدٌ متماهٍ مع ليلهِ، فبات زمنه زمناً ليلياً بامتياز.

أمّا المصادر المعلنة للقصيدة:

- تتشكل القصيدة من واحدٍ وثلاثين بيتاً، ونرى فيها تداخلاً في دوالها، إذ تتَّالى، ونرى فيها الوحدة العضوية، إذ تتجلّى في انبثاق الفكرة واستكمالها في أكثر من بيت، فكيف إذا كانت القصيدة تدور كلّها في ليلٍ كئيب رهيب؟!.

ومن هنا يتوزع النص الشعري على عددٍ من الثنائيات التي على الرّغم من أنها تشير إلى التناقض لكنها تنتمي إلى المعنى نفسه (الموت ودلالاته).

- فنرى ثنائيةً وجوديةً طرفاها (الموت / الحياة) وهما ضدّان متقابلان في الأوّل نهاية وفي الثاني بداية، ولن نشعر بالحياة إلّا إذا كان الموت نهاية. ولكن الحياة هنا ليست على النقيض منه بل إنّها مَلْأى بالأحزان.
- (ثنائية الليل / الفجر): وهي ثنائية تقابل ثنائية (الموت / الحياة) فالحياة أحزان، والفجر غَدٌ يلفُّه المجهول الذي قد ينذر بالشرّ والأهوال.
- وأيضاً نرى صورة (الغيم / الحياة) في صورة غدٍ مراوغة ومخادعة.

وتتحصّل لدينا ثنائية (أنا الشاعر / الليل) في حالة توحد وتماهٍ.

ومن خلال هذه الثنائية تتحصَّل لدينا البؤرة الرئيسة للنص: (الحياة – تجربة) عكست في أحزانها سمات سلبية في رؤية الوجود، لذلك كانت الذات منفصلة عن العالم المليء بالضجة والحياة والرؤيا فيه منغلقة.

أمّا الليل فهو الموت، والشاعر لا يريد السكينة والهروب فقط في عالم النهار أو الحياة بل يستثير لدى القارئ تساؤلات تأملية تصل إليها الذات المنغلقة على نفسها والمتوحدة

بعالمها وكأنها تلغي عالم النهار وأفق الحياة، فالتفاؤل معدوم، والسؤال في المجهود، والقبر جاهز بعد يأسٍ وحزنٍ في الحياة ليمتدّ فيه في سبات وعلى الدنيا السلام.

- الشاعر حاول الدخول إلى عوالم أخرى غير عالمنا هذا.

٢- مقولة النصّ:

- رسالة رومانسيّة موجهّة من الشاعر إلى المتلقّي فيها إحساسٌ شديد، وانفعالٌ جراء الموت والمرض والألم والحزن.

٣- الشكل الطباعي للنصّ:

النصّ الرومانسي متأثّر بالكلاسيكية فجرى مجراها، مع تغييرٍ في حرف الروي. ونرى أن ملامح التغيير الرومانسية العربيّة تتجلّى بثورتها على القوالب القديمة، ولكن بقيت الكلاسيكية مهيمنة، والجديرُ هو الاهتمام بالإحساس إلى حدّ التبجيل. مما يعني إفساح المجال الشعري للعاطفة الإنسانية الذاتية.

٤- الفضاء النصّي:

- إنّ جبران خليل جبران أوّل من وضع مفهوماً جديداً لليل في الشعر العربي الحديث إذ انطوى على رمزٍ إبداعيٍّ أساسي تأسست دلالاته في قصائد الرومانسية العربية.
- وكان المفهوم الجديد يقترن بحساسية متوحدة، تنطوي على العزلة والألم، ومحيطهما الظلام، وتنسحب الذات من حياة الواقع إلى حياة الحلم والمثال.
- والليل قرين العزلة التي يعشق فيها المتوحد كآبته كما يعشق نرجس صورته، وهو بُعْدٌ يصل بين جبران وأقرانه من شعراء الرومانسية العربية لا سيّما الشابي. فهو مثل جبران

يقترن عنده الليل بلحظات التوحد حين تنفصل أنا الشاعر عن الآخرين في لحظات الكشف والرؤيا.

- يقول جبران: ((أنا جالسٌ في سكون الليل، أستعرض رسوم الحياة ... ها أنا أنظر إلى غيابات الماضي وأحدّ بظلمات الأبد الغامض الرهيب)).

يتقاطع مع قول الشابي من وراء الهول من خلف نقاب الظلمات .....

والأسئلة.

وجومه كوجوم ليل امرئ القيس:

وليلٍ كموج البحر أرخى سدوله

في الختام:

- الليل ملمحٌ رئيس من ملامح الرومانسية العربيّة.
- ظهور الذاتية والغنائية الفردية في النصّ الشعري الرومانسي.
- الشكل البنائي الخارجي تهيمن عليه الكلاسيكية.
- التغيير الرومانسي في حرف الروي.

انتهت المحاضرة